المؤسسات التعليمية ودورها في ترسيم السياسة الكولونيالية الفرنسية بالجزائر- جامعة الجزائر 1909 أنموذجا-

Educational institutions and their role in demarcating the French colonial policy in Algeria University of Algiers 1909 model

مجاود حسين - أستاذ محاضر ب hocine.medjaoud@univ-saida.dz	دكتوراه تاريخ الحركة الوطنية والثورة الجزائرية	جامعة مولاي الطاهر- سعيدة- / الجزائر

DOI :

الإرسال: 2022/03/22 **القبول**: 2022/05/08 **النشر**: 2022/07/01

ملخص:

عرفت السياسة الثقافية والعلمية لفرنسا الاستعمارية بالجزائر، مع مطلع القرن العشرين تطورا جوهريا، فقد أصبح سلاحها الرئيسي في بسط هيمنتها على الجزائر، فأنشأت جامعة الجزائر سنة 1909، وجعلتها ملحق سياسي وإيديولوجي يخدم شرعية قوتها وأمنها الخاص، ويعزز تموقعها في المسار الثقافي القيادي، حيث سعت إلى تشجيع البحث العلمي وفق خط توجيهي محكم، وضمن سياق سوسيو-ثقافي ومؤسسي محدد، متشبع بالعقلية الكولونيالية.

كلمات مفتاحية: التنقيب؛ الاكتشافات؛ الإيديولوجية الكولونيالية؛ إفريقيا اللاتينية؛ الثقافة الوطنية.

Abstract:

The cultural and scientific policy of France knew at the beginning of the twentieth century a fundamental development, as it became its main weapon in extending its hegemony over Algeria, so it established the University of Algiers in 1909, and made it a political and ideological attachment that serves the legitimacy of its strength and its own security, and strengthens its position in the leading cultural path, as it sought to encourage research Scientific according to a tight guideline, and within a specific socio-cultural and institutional context, imbued with a colonial mentality.

Keywords : Prospecting; Discoveries; colonial ideology; Latin Africa; national culture

مقدمة:

عمدت الإدارة الفرنسية منذ الوهلة الأولى لاحتلالها الجزائر بتوظيف كل ما لديها من قوة ظاهرة أو خفية للقضاء على الجزائري "الأهلي"، وتجفيف مصادر ثقافته الوطنية، حيث هدمت المساجد وحولت أعداد كبيرة منها إلى كنائس، ثكنات، ومستشفيات...الخ. كما وجه الاستعمار ضربات قاسية للمثقفين الجزائريين: اضطهادا، سجنا، نفيا وتقتيلا... وظل يطاردهم قصد منعهم من أداء واجبهم في الحفاظ على الشخصية القومية للمجتمع الجزائري. فقد عمدت فرنسا على استعمال النص التعليمي والثقافي في محاربة وجود وكيان الحضاري للإنسان الجزائري، والعبث بالقيم الدينية والثقافية الوطنية - قصد المسخ والتذويب، ومحو كيان الأمة للنيل من هويتها الوطنية.

عرفت السياسة الثقافية لفرنسا مع مطلع القرن العشرين تطورا جوهريا، فقد أصبح سلاحها الرئيسي في بسط هيمنتها على الجزائر، فأنشأت جامعة الجزائر سنة 1909، وجعلتها ملحق سياسي وإيديولوجي يخدم شرعية قوتها وأمنها الخاص، ويغزز موقعها في المسار الثقافي القيادي.

من هنا جاء تساؤلنا كالتالي: ما دور البحوث العلمية والبرامج التعليمية في ترسيم الإيديولوجية الكولونيالية الفرنسية في الجزائر؟ وللإجابة على هذه الإشكالية عنونا مقالنا على النحو التالي " المؤسسات التعليمية ودورها في ترسيم السياسة الكولونيالية الفرنسية بالجزائر- جامعة الجزائر 1909 أنموذجا-".

وحتى يتسنى لنا الإجابة عن هذه التساؤلات وتكوين صورة واضحة عن واقع جامعة الجزائر خلال فترة الإحتلال الفرنسي لابد من العودة إلى جذور السياسة التعليمية الفرنسية في الجزائر خلال القرن التاسع عشر، لأنه من الصعب دراسة وضعية التعليم بعيداً عن المحيط السياسي والثقافي الذي نشأ فيه، لهذا سنحاول التطرق إلى هذا الموضوع من خلال تحديد السياسة العامة للتعليم الفرنسي بالجزائر بما فيها السياسة الثقافية، ومكانة جامعة الجزائر فيها، ثم نتعرف على اتجاه مصب البحوث العلمية المنتجة، ودور طلبة جامعة الجزائر في ترسيخ الفكرة الكولونيالية، وردت فعل الوسط الاجتماعي والثقافي الجزائري إزاء هذه السياسة الثقافية .

1. البعد الإيديولوجي لجامعة الجزائر في الفترة الاستعمارية:

تعد الجامعة قمة النظام التعليمي، كما يراد منها أن تكون الحارسة الحقيقية والباحثة عن الحقائق الجديدة، بل والمتمردة أحيانا على المعتقدات القديمة الجامدة والمحافظة على تراث المجتمع و المشكلة لشبابه والباحثة على سبل مستقبله، ويتمثل دور الجامعة في الإطلاع على الأمم و معرفة مقومات الحضارة وسيرورة التاريخ وازدهار الأمم وانحطاطها، كما ترمي إلى تنمية قوى الأذهان وتوسيع الآفاق المعرفية وتنشئة المواهب التي تميز الإنسان المثقف، وبعث التنوع الفكري الذي يؤول إلى تنمية ملكة الوعي الوطني والحضاري وتقوم بالبحث والاستكشاف لتوسع نقاط المعرفة الإنسانية، وبهذا تعد الحياة الجامعية من أهم منابع الثقافة السياسية، لأنها مليئة بالأحداث والمفاهيم والقيم والجوانب العلمية والتحصيلية، مما يجعلها الرائدة الأولى إلى وعي القضايا الوطنية والمعضلات الإنسانية. (محمود العراقي، الطلاب و القضايا الجامعية، 1984، صفحة 8)

من خلال تتبعنا لواقع التعليم والمؤسسات الثقافية في الجزائر المستعمرة أن نسبة تعلم أبناء وبنات الجزائر 1830-1954 م وما بعدها وحتى نهاية الاحتلال؛ لم تتجاوز 08 % ممن هم في سن التعليم، بل تقل كلما صعدنا السلم التعليمي، وبصفة خاصة بين الرجال الذين بلغت الأمية عندهم 95% وبين النساء الجزائريات 99% ؛ حيث يعتبرها محمد حربي: "أكثر من 85% بين الجنسيين ! ففي التعليم الابتدائي يمثل أبناء المستوطنين 5/4 حظوظ أبناء الجزائريين، و يصل عددهم:08 أضعاف أبناء الجزائر، وفي الثانوي يصلون 36 ضعفا بينما في التعليم الجامعي 192 ضعفا وتحديدا في جامعة الجزائر- و هي الجامعة الوحيدة آنذاك !- حوالي 15 مرة حظ الجزائريين في المدارس المهنية، (تركي، 1984، صفحة 178) و (Annuaire statistique de l'Algérie de 1925 à 1961) هذا حتى عشية اندلاع الثورة التحريرية. وبذلك يظهر جليا بأن النظام الاستعماري الفرنسي قد جند كل الوسائل المادية والفنية ليشجع إستيلاب الشعب الجزائري ثقافيا وحضاريا؛ على اعتبار ذلك الوسيلة المثلى لإخضاعه والتحكم فيه بصفة مستمرة و دائمة.

وقد سخرت الإدارة الاستعمارية الفرنسية كل طاقاتها من أجل إجهاض أي دعوة لانتماء الجزائر إلى الحضارة الإسلامية، حيث حفزت المؤرخين الفرنسيين خاصة خلال الحكم العسكري (1830-1870) على كتابة تاريخ الجزائر وفق منظور استعماري يغد فكرة

الفراغ الحضاري للمنطقة، وإعادة أمجاد روما القديمة، وكذلك تسهيل عملية السيطرة ولمدة طويلة. (Paoli, 1905, pp. 406-437)

ومن أجل تجسيد هذه الإيديولوجية الاستعمارية، أدخل الفرنسيون معهم نظمهم العلمية والأدبية و الاجتماعية المساعدة على استكشاف تاريخ المنطقة، و جمعوا الآثار وما تبقى من المخطوطات، و منذ السنوات الأولى للاحتلال شرع الفرنسيون في تسجيل كتابات عن الجزائر، و قد انقسمت إلى ثلاثة اتجاهات، كان الاتجاه الأول يمثله المؤرخون العسكريون نذكر منهم " دوماس Daumas " و" شارل فيرو Charles Feraud"، فقامت أعمالهم وأبحاثهم على معرفة الأرض التي احتلوها جغرافيا، و التعرف على أنماط معيشة السكان في السلوك و الطبائع و العادات، فكانت كتاباتهم في شكل تقارير إدارية و تحريات ميدانية، تكشف عن ما هو مجهول وغير معروف، وقد وجهت لهذا الاتجاه انتقادات كثيرة فمعظمها تنطلق من خلفية و هي أن أبحاثهم امتداد للعمل العسكري القائم على محاربة الجزائر شعبا و حضارة و تاريخا.

ومثل الاتجاه الثاني"الهواة"، الذين كتبوا عن الجزائر قصص و مذكرات وذكريات في جولاتهم في مناطق كثيرة من الجزائر، ويغلب على عملهم الانطباعات الخاصة التي تطغى عليها العموميات في وصف مجتمع لم يعرفوا عنه الكثير، ولم يلبثوا فيه سوى أسابيع وأشهر، فآراؤهم لا تخرج عن نطاق قصص الأسفار و ملاحظات الطريق.

وخلال الحكم المدني نشأة مدرسة فرنسية مختصة في كتابة تاريخ الجزائر ينشطها ويؤطرها مختصين منهم "S.Gsell" و"G.Marçais" و "Ch.A.Julien" وغيرهم، وكان لإنشاء المدارس العليا في 1880 وجامعة الجزائر في 1909 الدور الكبير في هذا الباب. إذ ساعدت هذه المؤسسات العلمية على تقديم صورة معينة عن تاريخ الجزائر تتنافى كثيرا مع الحقيقة التاريخية، وتتعارض في أغلب الأحيان مع تفاعل المجتمع الجزائري. (سعد الله، منهج الفرنسيين في كتابة تاريخ الجزائر، 1993، الصفحات 8-12)

تأسست جامعة الجزائر في 30 ديسمبر1909 والتي ضمت كلية الحقوق؛ كلية الطب والصيدلة؛ كلية الآداب وكلية العلوم،(scientifique, 1959, p. 43) وتعد جامعة الجزائر من أقدم الجامعات في الوطن العربي وظلت الجامعة الوحيدة على المستوى الوطني حتى

الاستقلال،(Gionard, Algérie L'œuvre Française, 1984, p. 258) وظهرت جذورها الأولى في حي القصبة منذ 1859 والمتمثلة في المدرسة التحضيرية للطب والصيدلة، ثم تلاها صدور قانون "جول فيريJules Ferry" في 14 ديسمبر 1879 الخاص بتطوير التعليم، وكذا إصدار رئيس حكومة فرنسا "Albert Grévy" مرسوم 26 أوت 1881 الذي يقضي بإلحاق (Rattachement) وربط كل الإدارات والشؤون الأهلية مباشرة بالوزارات المتخصصة في فرنسا، والتي على إثرها تم إلحاق التعليم العام الإسلامي بوزارة التعليم العام والفنون الجميلة، بالإضافة إلى إسهامات" بول بير" الذي أسس ثلاث مدارس عليا في القانون والآداب والعلوم.(Paoli, 1905, pp. 406-437)

تصب معظم الدراسات المنجزة من طرف جامعة الجزائر في استعمار العقول بعدما تمكنت الترسانة العسكرية من إدراج الحقول (الأرض)، حيث سعت السلطات العمومية الفرنسية إلى تدعيم البحث عن النتائج ونشرها، من أجل العثور على مبررات مادية لإقناع الأهالي بشرعية الوجود الفرنسي ،وبذلك كانت آثار سلف الأوروبي تشكل عونا بامتياز، (ريسلير، 1996، صفحة 31) وبهذا فإن التوجه لسياسة الثقافية الفرنسية التي هي جزء من السياسة العامة المبنية وفق ثلاث أفكار مهيمنة وهي: الادماج (1830-1870) Assimilation والتشارك Association (1870-1939) والاندماج Intégration (1939-1962)، وتتمفصل هذه الأفكار الثلاثة إلى موضوعات ذات آثار سياسية وثقافية في آن واحد. (ريسلير، 1996، صفحة 29)

كان هدف تأسيس جامعة الجزائر من الوجهة الفرنسية هو تطوير معارف وإستقطاب طلبة شمال إفريقيا، وإتمام المشروع الاستعماري المتمثل في تكوين الطالب الجزائري وفق الإيديولوجية الاستعمارية الرافضة للاعتراف بالطرف الجزائري كشريك لها، والسعي لقطع الصلة بين الجزائريين وهويتهم من جهة وعزلهم عن كيانهم العربي وامتدادهم الإسلامي حينما حرمت التعامل والتخاطب باللغة العربية من جهة أخرى. (الأشرف، 1983، صفحة 429)

وقد أقر الفرنسيون أنفسهم بذلك التفوق والجبروت الذي حققوه على حساب الجزائريين، وذلك ما أوضحه أستاذ القانون بجامعة الجزائر "ايميل لرشي" سنة 1903 بقوله: ((إن وضع الفرنسيين اليوم بالجزائر شبيه بوضع الإفرنج في غاليا القديمة، جنس

غالب يفرض هيمنته على جنس مغلوب، هناك إذا أسياد ورعايا، وأصحاب امتيازات وأناس لا امتيازات لهم، فلا محل هنا للمساواة)) (سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية (1830-1900)، 1992، صفحة 87) .

لهذا سعت السلطات الفرنسية إلى إنشاء مؤسسات ثقافية بحجم جامعة الجزائر، تثري المجال العلمي والمعرفي يخدم الاستعمار وتعمل على ترسيخ أطروحاته وإنماء الهزيمة والأفكار التخديرية والشعور بالدونية لدى السكان الأصليين .

2. توجيه البحث العلمي لخدمة السياسة الثقافية الفرنسية في الجزائر

سعت جامعة الجزائر إلى تشجيع البحث العلمي وفق خط توجيهي محكم، وضمن سياق سوسيو-ثقافي ومؤسسي محدد، متشبع بالعقلية الكولونيالية، حيث يذكر في هذا الصدد "أوغسطين برنار Bernard Augustin" (أستاذ في السربون): ((إن البحث كان محدّدا بإطار مُوجّه لاختيار الموضوعات)). (ريسلير، 1996، صفحة 94) واتسم منهج الفرنسيين في الدراسات التاريخية المتعلقة بالجزائر منذ بداية الاحتلال، بالاعتماد على نشر الآثار القديمة عن الجزائر، إذ مع بداية سنة 1831 كلف "آذن بيرتزين" قائد الجيش الفرنسي عالم الآثار "شيافي" بالتنقيب على الآثار داخل مدينة الجزائر، كما تم إنشاء اللجان العلمية ومنح الرخص للأفراد للقيام بعمليات البحث والجمع والتعريف بالآثار التاريخية للبلاد، زيادة على تكوين الجمعيات المختصة، والصحف والدوريات التي تحفظ المكتشفات التاريخية. (سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الجزء الأول، 1990، الصفحات 13-14)

حيث تم إنشاء الجمعية التاريخية الجزائرية سنة 1856 برئاسة " آدريان باربروغر Adrien Berbrugger " التي كان لها الفضل في إصدار المجلة الافريقية ، (سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الجزء الأول، 1990، صفحة 13) ثم بدأ تنظيم البحث انطلاقا من 1880 بحفظ الوثائق الأثرية واكتشافها على مستوى مدرسة العاصمة، والقيام بوصل التأريخ جامعي تقليدي بالجزائر بالتأريخ الفرنسي واعتباره وريث "شرعي" ، يسعى لاسترجاع جزائر الماضي البعيد وإعادة إحياء أمجاد روما القديمة، وإدراج الجزائر بفرنسا . **(Vatin, 1983, p. 394)**

تكاثفت جهود أساتذة جامعة الجزائر مع جهود الجمعيات التاريخية والأثرية ببعث عهد جديد في كتابة تاريخ الجزائر، حيث ربطته بتاريخ شمال إفريقيا والمغرب العربي، حيث بدأ العمل من خلال كلية الآداب على بعث إفريقيا اللاتينية عبر دراسة علم الآثار القديم (البوني والروماني) والنقوش والتركيز على التاريخ الروماني في المنطقة وإيصاله بالحاضر وبتر الفترة الإسلامية، حيث عمد أساتذة في مجالات التاريخ القديم والدراسات اللغوية واللهجات، والمهتمين بالتاريخ إفريقيا الشمالية من أمثال: Doute ; Rene Bassat ; Masquary , Ray gosse ; Stéphane Gzal et Xavier Yacono ...، بإنتاج الأطالس الأثرية والمتاحف وكتب التاريخ، تصب كلها في مصب واحد وهو: لا تاريخية للجزائر عربية إسلامية؛ الإلحاح على اللاوجود التاريخي لكينونة ثقافية وسياسية جزائرية سابقة للغزو، مستغلين غياب آثار مكتوبة عن ماض "وطني" والضعف الوعي الوحدوي في تلك الفترة، حيث يذكر في هذا الصدد أبو القاسم سعد الله: ((إن زاوية اهتمام هؤلاء المؤرخين بالآداب المحلية والتاريخ المغاربي ومنابع الثقافة المحلية بشكل عام لم يكن إلا من زاوية تطبيق مناهج التاريخ على تلك الدراسات، ومن ثم تصنيف التراث الإسلامي ضمن الميثولوجيا المحلية، أو الثقافات البائدة بمعنى وقوفهم موقفا مشبوها من الاسلام واعتبروه نوعا من التقاليد الموروثة والفلكور وكذلك اعتبر معظمهم الفتح الاسلامي غزوا، وركزوا على أحداث معينة لزرع التفرقة بين سكان شمال إفريقيا الذين وحدهم الاسلام مع تشويه الرموز الوطنية من شخصيات فذة باعتبارهم متعصبين وبرابرة)). (سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الجزء الأول، 1990، صفحة 34)

بينما كتب "إستيفان غزال Stéphane Gzell" عن العهد الإسلامي من الفتح العربي إلى 1500م أن الباحث فيه يدخل في ظلام دامس لعدم وجود الوثائق الصحيحة والمعاصرة، وقال أن الباحث لا يجد سوى بعض الحوادث المتأخرة وغير منقولة وبعض التسجيلات للأحداث لكنها تسجيلات مرتبطة بالنظم العسكرية وغير نزيهة، ولم يستثن غزال من هذا الحكم سوى ابن خلدون، لذلك نادى بالاعتماد على رحلات الأوروبيين وأرشيف الدول الأوروبية ، والأرشيف التركي لدراسة هذه الفترة. (http://mokhtari.over-blog.org/article-111472994., 2012)

كما قامت السلطات الفرنسية بتدعيم مختلف أطر البحث، ففي سنة 1926 حصل رئيس الجمعية التاريخية الجزائرية د.لوسياني Luciani (المدير السابق للشؤون الأهلية) على مساعدة من حكومة فيوليت العامة لأجل دعم هذه المؤسسة، حيث قامت هذه الجمعية بتسجيل مخطط النصب التذكارية القديمة، وإطلاق دراسة النقوش اللاتينية وفتح حملات التنقيب، وأوصت السلطات العمومية لتسهيل مهام المهندسين المعماريين المكلفين بدراسة النصب والتعبيرات الخطية، العتيقة بالجزائر، وألزمت الولاة بتسهيل المهمة لهم، وبهذا بدأ الاستيلاء على الأبعاد الثقافية والتاريخية للجزائر. (Oulebsir, 1994, pp. 59-60)

كما سعت السلطات الفرنسية إلى العمل على إعادة الانتماء اللاتيني الأصلي لإفريقيا الشمالية عن طريق الاهتمام باختصاصات معينة، كعلم الآثار وعلم الأعراق والأنتروبولوجيا واللسانيات وعلم ما قبل التاريخ، فعمدت على تقديم سلالة أو شجرة نسب للبوثقة الجزائرية باستنادها لفقه اللغة Philologie أو القياس التشريحي Anthropométrie للبحث عن أصول خارجية المنشأ لسكان الجزائر (خاصة سكان القبائل)، مع تغييب كلي للفترة الإسلامية باعتبارها فترة متحجرة تعبر عن ركود معاد للتقدم، (Vatin, 1983, pp. 25-26) ودعموا عملية فكرة اعتباره العرق البربري ذو أصول جرمانية جزئيا ومسيحي بأكمله ماضيا، ولم ينغمس كليا مع الديانة الجديدة (الإسلام)، قبل القرآن تحت السيف، ولكنه حافظ على نسقه الاجتماعي وإرثه الثقافي المستقل، يتبين الوحشية الواقعة على الحقيقة العلمية والنزاهة المعرفية التي تبنتها السلطات الفرنسية. حيث يذكر "تيدور ستيغ Théodore Steeg " الحاكم العام بالجزائر في مذكرة 06 جانفي 1924 والمخصصة لعلم الآثار قائلا: ((تشهد جميع الآثار القديمة المنشورة على التراب الجزائري، والكثيرة على الحدود التونسية خصوصا، على الدور المهم الذي لعبته إفريقيا في العصور القديمة].....[انشغلت الادارة الجزائرية دائما باستخراج هذه البقايا من الحضارات القديمة والحفاظ على ذكريات الماضي)). (CAOM 56, S/1, 1927)

تصدى "فرحات عباس" من خلال مقالاته التي جمعها في كتابه "الشاب الجزائري" ، لدعاة "إفريقيا اللاتينية" وأنصارها من المعمرين في الجزائر وفرنسا، ورأى من خلال مقاله: "الأعراق السامية: الاستعمار والإسلام" (Les races supérieurs : Colonisation et

Islamisation)، أن ماضي الجزائر في امتداده العربي والإسلامي ينطوي على مخزون ثقافي وعلمي وعلى تقاليد، وكان أفضل إنجاز حضاري ساهمت به في العصر الوسيط، وتوقف عند العصر الروماني في الجزائر، حيث اقتصرت مظاهر الحضارة على بعض المدن، والفئة الحاكمة والمرفّهة التي حكمت منطقة الشمال الإفريقي، ولم يكن هذا النظام قائما على سياسة استيعاب بقية الأفراد من الأهالي الإفريقيين، في إطار سياسي واجتماعي، بل كان كل شيء يصب في روما الأوروبية، إلى أن جاءت رسالة الإسلام إلى ربوع جنوب البحر المتوسط، واضطلع بها رجال لم يكن يحدوهم ما حدا الرومان، بل استوطنوا البلاد كأحد أفرادها.

ويستشهد فرحات عباس بالمؤرخ والمستشرق الفرنسي "لوثروب ستودار L.Stoddard" صاحب كتاب The New World of Islam (العالم الجديد للإسلام): "فمن جانبهم، كان العرب يعرفون كيف يجمعون سيطرتهم ويوحدونها، فلم يكونوا برابرة متعطشين للدماء، ولم يكن همهم الوحيد اللهث وراء الغنائم والنهب والتدمير. بل على العكس من ذلك تماما، فالعرب جنس وُهِب شمائل، فهم يقدّرون التعليم ويحبّونه، ويحترمون الحضارات القديمة. وفور وصولهم إلى شمال إفريقيا اختلطوا بأهاليهم، وكان رائدهم الإيمان بالعقيدة الواحدة التي استوعبت المنهزمين والمنتصرين في بوتقة واحدة، نجمت عنها حضارة جديدة، وهي حضارة الغرب الإسلامي التي أعادت بعث الثقافات القديمة: الإغريقية والرومانية والفارسية، بفضل جدّية العرب وعبقرية الإسلام وروحه" . (Ferhat, 1981, p. 83)

يردف في نفس المقال قائلا: ((كانت المدن الإسلامية مراكز كبرى للمساواة الاجتماعية، وبمنزلة البوتقة التي انصهرت فيها جميع فئات المجتمع، أجانب وأهالي، وخصوصا ذلك العمل الجبار الذي قام به شيوخ المدارس، فقد ترسّخت قاعدة سلوك في حضارة الإسلام مفادها أن البلد المفتوح يرسم فيه التعليم كأولى الأولويات وما يجب أن يبرر وجود الفاتحين أنفسهم. فالتعليم الذي تقرر في هذه البلدان هو تعليم عام، بمعنى أنه يصل إلى الشعب كله من دون تمييز بين الطبقات. والمعلم يفتح (محله) ليلتف الطلبة حوله في حلقة علمية، وإذا ما انتهوا من عنده، صاروا إلى بلد آخر، وهكذا دواليك، بحيث يترددون على جميع جامعات الامبراطورية: قرطبة، فاس، تلمسان، تونس، القاهرة،

دمشق، المدينة المنورة. وعليه، فإن هؤلاء الطلبة الذين تواصلوا مع لغتهم العربية الجميلة، هم الذين صاروا خميرة الروح الإسلامية وموطنها الفكري، وأصبح الإنسان البربري يشعر لأول مرّة بوجود حياة وطنية، وأنه يستطيع أن يمثل حياته في الإسلام، وأنه ليس غريبا عنه، بل له نصيبه في تراث الإسلام الفكري والأخلاقي)) . (Ferhat, 1981, p. 87)

يتضح جليا موقف ورأي فرحات عباس من خلال هذا المقال في الحضارة العربية والإسلامية المبنية على تقبل الآخر وتعمل على استيعابه ليتبنى قيمها ومبادئها بدون إكراه، كما تحفظ له حقوقه قبل أن تلزمه بواجباته. وهذه حقيقة تاريخية فرضت نفسها على وعي كل من اكتشف حضارة الإسلام وتراثه، حيث لم يحرم الفاتحون سكان القبائل البربر من شريعتهم العرفية، بل أضافوا إليها قواعد سلوك تستند إلى عقيدة الإسلام التي أُدغمت في عادات الشعوب وتقاليدها وطريقة تفكيرها ونمط حياتها.

لهذا كانت علاقة الإنسان الجزائري بالإسلام علاقة عقيدة ومعاملات، تتوفر على لُحمة التماسك التي تتحيّن الفرصة لتستأنف دورة حضارية وسياسية جديدة، فالقاعدة الصلبة لهده الحضارة في رأي فرحات عباس تتطابق مع ((ما تنطوي عليه سريرة وقلب الإنسان)). (Ferhat, 1981, p. 89) وهكذا، فإن الإيمان في جانبه الحضاري غير قابل للخوض فيه والنيل منه، إذ هو حق راسخ وملازم للفرد مهما تكن ديانته، فلا يمكن معاتبة المسلمين على إيمانهم، حيث يرى فرحات عباس أن العقلية الكولونيالية التي اختزلت الدين الإسلامي في مظاهر التعصب والتخلف، ورأت أنه معاد للحداثة في تعبيراتها السياسية والاقتصادية والفكرية، لا تساعد في العيش في إطار الدولة المدنية التي تأبى التعصب وتتسع للتسامح والعيش معا.(Ferhat, 1981, p. 115)

رغم انحياز معظم الدراسات التاريخية والاستشراقية ودراسات علم الاجتماع لإدارة الاستعمار، إلا أنها أصبحت بعد الاستقلال غنيمة حرب، حيث أثرت المكتبات والمتاحف وكان لها أثر إيجابي من حيث بناء قاعدة مصادر تاريخية وأثرية هامة، أمكن للجزائريين الاستفادة منها، وتعد اليوم المصادر الفرنسية والمجلات والدوريات المتنوعة أهم مصادر الكتابة التاريخية وأكبر مثال على ذلك "المجلة الافريقية" (Libyca - Etude d'Art-

-Revue Africaine -Revue de la méditerrané). (العكروت، 2008-2009، صفحة 61 و 159)

3. مراهنات جامعة الجزائر على فئة الطلبة الجزائريين في تزكية الإيديولوجية الكولونيالية

اعتمدت السياسة الإستعمارية الفرنسية في الجزائر منذ الإحتلال على القضاء على كل مقومات الشعب الجزائري المادية والمعنوية، فألحقت الجزائر بفرنسا وصادرت الأراضي الزراعية وأملاك الوقف التي كانت تضمن التعليم للجزائريين خدمة السياسة التجهيل الإستعمارية لضمان خضوع الشعب، ووأد كل حركة وعي محتملة مستقبلا تهدد الوجود الفرنسي، ولكن رغم هذه السياسة إلا أن الجزائريين تمسكوا بالتعليم العربي تحت الظروف القاسية، واستفادوا من التعليم الفرنسي الذي فرض عليهم بجعله وسيلة لإثبات الذات و تحقيق مكاسب مختلفة.

لقد عرفت الجزائر مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ميلاد نمط ثقافي جديد متمثل في فئة النخبة الجزائرية المثقفة التي حققت مكانة علمية واجتماعية محترمة، وبحسب التقسيم الاجتماعي السائد وقتئذ يوجد شريحتين بين صفوف النخبة، طلبة النخبة التي سعفها الحظ في مزاولة الدراسة النظامية بالمدارس الابتدائية والإعدادية الفرنسية أو بالمعاهد العليا والجامعات بأوروبا وبالخصوص في باريس، أما الفئة الثانية فتمثل عامة الشعب الجزائري والتي كان نصيبها من التعليم بين جدران الزوايا والكتاتيب القرآنية والمدارس الحرة. (جغلول، 1984، صفحة 6)

خلق التباين التكويني الفكري والأيديولوجي لهذه الشريحتين ظهور تيارين؛ أولها هو التيار الطلابي الذي تشبع بالمبادئ الغربية، وتعلم اللغة الفرنسية، وتأثر بمبادئ الثورة الفرنسية، والثاني يمثله التيار الطلابي المحافظ الذي نهل من العلوم الدينية و تشبع بالمبادئ الإسلامية وتقرى على الحضارة العربية، (مريوش، 2002، صفحة 255) ولذلك فلا غرابة من أن نجد أن الانتماء الفكري ينعكس أساسا على التنظيمات الطلابية التي عرفتها الجزائر في نهاية القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين مع مطلع النهضة الجزائرية وبداية العمل السياسي المنظم .

ساعد في ظهور فئة الطلبة إنشاء جامعة الجزائر، لكن إلتحاق الطلبة الجزائريين – الأهالي- بها كان ضئيل وهذا لعدة اعتبارات منها اعتماد جامعة الجزائر على تصفية طلبات الالتحاق بها من الطلبة الجزائريين، حيث قدر عددهم بـ 29 طالب سنة 1909 ، (بارفلي، 2007، صفحة 47) كما أن كلياتها لم تلبي كل الرغبات، مما دفع بعض الطلبة تسجيل أنفسهم في الجامعات الفرنسية وخصوصًا في باريس التي تعد قبلة الطلبة، يذكر جوليان في هذا الصدد بقوله: ((...أرسل قسم من البرجوازية أبناءهم للتعليم بالمعاهد الفرنسية وإتمام دراستهم بباريس، وهناك اكتشف الطلبة المتنبئون للحركة الوطنية الأيديولوجية الديموقراطية باتصالاتهم برجال السياسة الفرنسيون فأصبحت قاعدة لرغبتهم)). (جوليان، 2011، صفحة 168)

وقد تأثرت هذه الفئة من الطلبة بما عايشوه في الخارج، إذ كانت مرحلة مليئة بالأحداث والمفاهيم والقيم والجوانب العلمية والتحصيلية للحضارة الغربية، فهي تميز حياتهم الخاصة التي لم يألفوها في السابق، بل تكون منهم النموذج الخاص، لأنهم يمتلكون مراكز التفوق والسمو في المجتمع، كما أنهم يمثلون الأقلية الفعالة والمسؤولة التي هيئت لخدمة الأكثرية بطريقة مقيمة إجتماعيا، وبها وصل الطالب الجزائري إلى الحد الأعلى في مجال النشاط الساسي والاجتماعي والثقافي، كل هذه التحولات والتغيرات الفكرية وغيرها أثرت في تركيبة المجتمع الجزائري الثقافية والاجتماعية وسمحت بتكوين فئات وسطى جديدة (هذا من خلال نضال الحركة الوطنية بمختلف شرائحها وتشكيلاتها) إلى جانب العلاقات المستمرة بين الحضارة الغربية الأوروبية والإسلامية التي تأكدت جليا في أشكال النشاط الاقتصادي والإنتاج في مرحلة ما قبل الموجة الاستعمارية (Vant riet, 1992, p. 19) .

لقد كان لبروز هذه الفئة من الطلبة المتشبعة بالثقافة الفرنسية في الجزائر، واصطدامها بالثقافة الوطنية خلال هذه الفترة دور في إدخال تصورات ثقافية وإيديولوجية متضاربة ومتصارعة في آن واحد، ساهمت كل واحدة منها في إيجاد شرائح اجتماعية ذات شبكة ثقافية متميزة ومختلفة تعبر عن رؤى وأفكار كلا النموذجين: الأوربي والعربي الإسلامي. (حمادي، 1995، الصفحات 74-78)

لقد أنتجت المدرسة الفرنسية جيلا يمثل مصالحها الثقافية والاستعمارية الاحتكارية خلال فترة تاريخية حاسمة حدثت نتيجة تعارض أفكار تراثية وتنويرية اشتد فيها الصراع بين النموذج التأصيلي (المجتمع الجزائري) والنموذج الغربي الأوربي. (Ageron, Histoire de l'Algérie contemporaine (1871 – 1954), p. 239)

لقد كان لهذا التأثير الأوربي نتائج وخيمة على العلاقات بين أفراد المجتمع وعلى مستوى الطوائف الدينية والعائلية، ساهمت في إيجاد تركيبة فكرية أوربية برجوازية علمانية من حيث المستوى التعليمي والمركزي الاجتماعي والدور القيادي الثقافي السياسي، حيث ظهرت هناك نخبة من إنتاج فرنسي ذات توجه وطني برجوازي -من أمثال الأمير خالد- رفضت الذوبان الكلي مع فرنسا،-(Ageron, L'émir Khâled, petit fils d'Abd el-Kader,fut-ill premier nationaliste algérien?, 1966, p. 11) ، جمعت بين المطالبة بالشخصية الوطنية وتصحيح العلاقة مع السلطات الفرنسية، وفي مقابل فإن العديد من هؤلاء الطلبة صعب عليهم التأقلم والإندماج مع المحيط الجديد، وفضل بعضهم الالتحاق بالمعاهد التعليمية في المشرق العربي، كما أُرغم الكثير من الذين رفضوا المدرسة الفرنسية والعيش تحت نظام وعلم السلطة الفرنسية، بالهجرة باتجاه جامع الزيتونة بتونس وجامعة القرويين بالمغرب أو الأزهر الشريف أو بلاد الحجاز والشام. وحتى إلى تركيا- التي كانت مقر الخلافة الإسلامية- لمتابعة دراستهم الجامعية–من بينهم علماء جمعية العلماء المسلمين-. (Gionard, Algérie l'oeuvre française, 1984, p. 258)ارتقى من خلالها هؤلاء الطلبة في تكوينهم الفكري والسياسي إلى مستوى المنظر والمشرع السياسي الذي ساهم في مجرى التحول في البناء السياسي خلال الحركة الوطنية والثورة الجزائرية، ومن خلال بناء عقلية جديدة استطاعت أن تتكيف مع الظرف الاستعماري ومقتضياته، وتعمل على التخلص منه من خلال مساهمتهم في دعم الثورة الجزائرية ماديا ومعنويا. (جغلول، 1984، صفحة 6)

يعد المكون الفكري والإيديولوجي للتنظيمات الطلابية أحد أهم المكونات الثقافة السياسية المطروحة في الحركة الوطنية والثورة الجزائرية، حيث حملت الحركة الطلابية في مسيرتها مخاض عسير في إعادة إحياء البعد الحضاري للشعب الجزائري رغم اختلاف في مشارب تنظيماتها ، (جديد، 1999، الصفحات 52-61) ورغم مراهنات المدرسة الفرنسية

وطروحاتها في تكوين جيل جديد فرانكفوني متشبع بالمبادئ اللائكية يعمل على خدمة السياسية الاستعمارية، والعمل على عدم نشر الثقافة الفرنسية على نطاق واسع بين جميع الجزائريين، لأنها كانت تعتقد أن ذلك يمثل خطر عليها، لهذا اجبر الجزائريين على التخلي على ثقافتهم الخاصة، ومنعوا في الوقت ذاته من الالتحاق على قدم المساواة مع الأوربيين بثقافة الدولة الاستعمارية. رغم هذا فإنها لم تستطع اختراق التواصل القِيمي الذي كان ينقله الأجداد والأباء للأبناء والأحفاد، وكانت ثقافته الذاتية محصنة في وجه كل ثقافة مفروضة. (سعد الله، أفكار جامحة، 1988، صفحة 66)

بدا التفاعل الطلابي مع الانفتاح السياسي النسبي خاصة بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، وانتشار الأفكار التحررية وحقوق الشعوب في تقرير مصيرها، فظهرت عدة تنظيمات طلابية وسط الجامعة الفرنسية (في الجزائر أو فرنسا) وكانت قريبة نوعا ما من تفكيرها و توجهاتها مع خط المدرسة الفرنسية ومتأثرة بالحضارة الغربية، ولو العديد من هؤلاء الطلبة تطوروا تطورا إيجابيا تجاه القضية الجزائرية بتطور الأحداث.

4. أهداف السياسة التعليمية الفرنسية في الجزائر

يعتبر التعليم قطاعا مهما في نشر الوعي السياسي، وخلق الإعتزاز بالمقومات والثوابت لأي أمة، لذلك خضع لتدخل لسلطة الفرنسية وأدرج ضمن السياسة الإستعمارية من خلال محاربة التعليم العربي وإحلال التعليم الفرنسي محله. فالسلطة الإستعمارية الفرنسية قاومت التعليم بالمساجد والزوايا وضيقت عليه الخناق و عوضته في المدن بالتعليم الرسمي و أحدثت لذلك مدارس ثلاث على مستوى الوطني بكل من قسنطينة، المدية و تلمسان ثم حولت مدرسة المدية إلى العاصمة.

في مارس 1843 أصدر الجنرال "بيجو Bugeaud " قرارا بضم أوقاف مكة والمدينة إلى إدارة الدومين، وفرض اللغة الفرنسية على الصبيان المسلمين في الكتاتيب. وهدفه السيطرة على أموال الأوقاف وقطع رزق العلماء ومزاحمة اللغة العربية تمهيدا للقضاء عليها و كان إلزام الأهالي بالتعليم الفرنسي يدخل في سياسة الإدماج الإستعمارية لذلك لقي معارضة من الجزائريين والفرنسيين معا، وتعرض لضعف كبير منذ الإحتلال الفرنسي حتى في المدن التي كانت تتميز بالثقافة العربية، نظرا للعراقيل التي تضعها السياسة

الإستعمارية أمام التعليم العربي كمعاول هدم للثقافة الوطنية بالموازاة مع الغزو العسكري. (حلوش، 1999، صفحة 28)

بصفة عامة فإن الإدارة الاستعمارية من خلال سياستها التعليمية الأهلية كانت تسعى إلى تحقيق جملة من الأهداف يمكن لنا تحديدها فيما يلي:

- ✓ تعليم جماعة من الأهالي لتوظيفهم في خدمة مصالحها وأهدافها الخاصة في الجزائر.
- ✓ إن الغزو السياسي والعسكري يجب أن يكون مقترنا بغزو تعليمي معنوي وذلك بتحبيب الدولة الفرنسية للأهالي، وحملهم بذلك على الاستسلام إلى حكمها وخدمة مصالحها عن طواعية.
- ✓ لم تقم بتعليم الأهالي تعليما حقيقيا لأنها أدركت مدى الخطورة التي يشكلها ذلك على مصالحها، فهي مارست تعليما بسيطا لأجل تسهيل عملية الاستعمار وشعارها في ذلك ضرورة تعليم الأهالي بدون تثقيفهم، تعليمهم تعليما يجعل منهم آلات صالحة في المعامل والحقول، بدون توسيع آفاقهم وأفكارهم.
- ✓ نشر التأثير الفرنسي ثقافيا وحضاريا من خلال زرع العديد من المدارس في الجزائر، وعلى رأسها المدرسة السلطانية التي افتتحت أبوابها سنة 1857م.
- ✓ التعاون مع كل ما يخدم ثراء فرنسا وتوسعها بمعنى توجيه الأبحاث نحو الاستغلال الاقتصادي والتوسع الاستعماري.
- ✓ أن تكون الجامعة في خدمة الأبحاث، وتطبيق العلوم على البيئة الشمال إفريقية في مختلف الميادين الانسانية والتقنية

وأزداد اهتمام الجامعة بالصحراء وأصبحت فضاء علميا استراتيجيا بعد اكتشاف البترول، وتحقيق المشروع النووي الفرنسي من خلال الأبحاث النووية المنشأة عام 1958، وبهذا فقد سايرت جامعة الجزائر الايديولوجية الاستعمارية ، وسارت على نفس الخط العلمي المحدد لها، وذلك بالاهتمام بكل ما هو محلي وتطبيق العلوم على البيئة الشمال إفريقية. (Mohammed, Harbi, 1982, p. 26)

خاتمة

على الرغم من كل الأفعال المنافية للمبادئ القانونية والأخلاقية، الممارسة في حق الجزائريين ثقافيا والسعي إلى إدماجه مدنيا وسياسيا واجتثاثه من بعده العربي والاسلامي... إلا أن تمسك المجتمع الجزائري بكيانه المدني، اللغوي، والديني... كان يعكس بحق مدى تعلقه بتراثه وانتمائه الثقافي العربي الإسلامي. فنشأ جيل كامل من الجزائريين في القرى والأرياف والمدن الجزائرية الكبرى؛ تربي في حضن قيمه الوطنية والحضارية كما تمسك بأصالته العربية الإسلامية. فأعطى بذلك نفسا وروحا جديدين للتعليم العربي في الجزائر، وإحياء جذوة الإيمان والعقيدة في نفوس وقلوب الجزائريين، كما امتلك القدرة على محاورة النظام الإستعماري بأسلوب عصري وهو المقاومة الحوار التي تحاول الحصول على الحقوق بالمطالب والعرائض عن طريق الإقناع، دفاعا عن مقومات الشخصية الجزائرية للحفاظ عليها ضمن الإطار الإسلامي والعربي، كما يظهر نضالهم ومحاولاتهم الحثيثة التنوير الجزائريين ورفع مستواهم العلمي بالأخذ من منابع الحضارة العربية والغربية كما يعكس نشاطهم ثقافة عربية وإسلامية واسعة وإطلاع على النظم الغربية وأسباب تطورها وفهما لسبل سياسة الناس والأسباب الباعث على الإستقرار الإجتماعي والسياسي ودراية بمجمل الأحداث وتطورها إنطلاقا من الواقع.

فهيأت بعملها ذاك الظروف الملائمة لعملية التحرير الوطني؛ عبر توفير شروط ميلاد جيل نوفمبر؛ الذي فجر الثورة في وجه العدو الفرنسي؛ وأثر على باقي النخب الجزائرية التي تبنت الفكرة وآمنت بها وعملت على الدفاع عنها، فقضوا بذلك على أحلام وأوهام الاستعمار الفرنسي !؟

قائمة المراجع

1. أبو القاسم سعد الله. (1990). أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الجزء الأول (الإصدار الطبعة الثالثة). بيروت: دار الغرب الاسلامي.
2. أبو القاسم سعد الله. (1988). أفكار جامحة (الإصدار الطبعة الأولى). الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
3. أبو القاسم سعد الله. (1992). الحركة الوطنية الجزائرية (1830-1900). بيروت: دار الغرب الجزائري.

4. أبو القاسم سعد الله. (1993). منهج الفرنسيين في كتابة تاريخ الجزائر. مجلة الأصالة (14)، الصفحات 8-12.

5. أحمد توفيق مدني. (1983). جغرافية القطر الجزائري (الإصدار الطبعة الثانية). مكتبة النهضة.

6. أحمد مريوش. (2002). القضايا الوطنية في اهتمامات الإنتالجانسيا الجزائرية ما بين 1927/1876، النخبة المزدوجة الثقافة نموذجا. مجلة دولية المؤرخ (2).

7. خميلي العكروت. (2008-2009). جامعة الجزائر بين الأهداف الاستعمارية وتكوين الطلبة المسلمين (الجزائريين) 1909-1956. الجزائر: كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر -بن يوسف بن خدة.

8. رابح تركي. (1984). وضع النساء والفتات الجزائريات في التعليم. مجلة الثقافة (84)، 178.

9. سهام محمود العراقي. (1984). الطلاب و القضايا الجامعية (الإصدار الطبعة الأولى). الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

10. شارل أندري جوليان. (2011). تاريخ إفريقيا الشمالية (تونس، الجزائر، المغرب الأقصى: من الفتح الاسلامي 647م). (محمد مزالي، المترجمون) مؤسسة تاوالت الثقافية.

11. صالح جديد. (5إلى 11 أفريل, 1999). الانتليجانسيا الشابة والزمن نحو التحرر. جريدة رسالة الأطلس .

12. عبد القادر جغلول. (1984). الاستعمار و الصراعات الثقافية في الجزائر (الإصدار الطبعة الأولى). (سليم قطوس، المترجمون) بيروت: دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع.

13. عبد القادر حلوش. (1999). سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر. الجزائر: دار الأمة.

14. عبد الله حمادي. (1995). الحركة الطلابية الجزائرية (1871-1962) "مشارب ثقافية وايديولوجية" (الإصدار الطبعة الثانية). الجزائر: منشورات المتحف الوطني للمجاهد.

15. غي بارفلي. (2007). النخبة الجزائرية الفرنكوفنية (1800-1962). (محمد حاج مسعود، المترجمون) الجزائر: دار القصبة للنشر.

16. فرحات عباس. حرب الجزائر وثورتها -ليل الاستعمار. مطبعة فضالة المحمدية.

17. كميل ريسلير. (1996). السياسة الثقافية الفرنسية في الجزائر (الإصدار الطبعة الأولى). (تير طيار، المترجمون) دار الكتابات جديدة للنشر الالكتروني.

18. مجلة الثقافة الجزائرية. (1985). (85).

19. مصطفى الأشرف. (1983). الجزائر: الأمة والمجتمع. (حنفي بن عيسى، المترجمون) الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.

20. Ageron, C. R. *Histoire de l'Algérie contemporaine (1871 – 1954)* (Vol. tome 2). PUF.

21. Ageron, C. R. (1966). L'émir Khâled, petit fils d'Abd el-Kader,fut-ill premier nationaliste algérien? (2), pp. 9-49.

22. Annuaire statistique de l'Algérie de 1925 à 1961

23. CAOM 56, S/1. (1927, fivrier 26). Monument historique (1875-1928) GGA. cabinet du gouvemeur général Recommandation.

24. Ferhat, A. (1981). *Le jeune algérien.* Paris: Garniers Fréres.

25. Gionard, P. (1984). *Algérie l'oeuvre française.* Paris: Robert Laffont.

26. *http://mokhtari.over-blog.org/article-111472994.* (2012, octobre 20). Consulté le 2022

27. Mohammed, Harbi. (1982). *Algérie et son destin.* Paris: Ed arcature.

28. Oulebsir, N. (1994). "La découverte des Monuments de l'Algérie, Les missions d'Amable Ravoisié et d'Edmond Duthoit (1840-1880)". *Revue du monde musulman et de la Méditerranée* (73-74).

29. Paoli, L. (1905). l'enseignement supérieur à Alger. *Revue Africaine* (49), 406-437.

30. scientifique, e. (1959). *Université d'Alger : cinquantenaire, 1909-1959.* Alger: Imprimerie officielle.

31. Simone Vant riet .(1992) *.introduction à l'histoire contemporaine .* Bruxelles: Publications du Centre pour l'étude des problèmes du monde musulman contemporain.

32. Vatin, J. (1983). *L 'Algérie politique, histoire et société* (éd. 2éme). Paris: Presses de la Fondation nationale des sciences politique.